مقدمة عامة

عندما يتعلق الأمر بإشكاليات التقدم والتخلف الحضاري، فإن مجال البحث يتعدد بتعدد أنماطها وأشكالها وتمظهراتها إن ازدهارًا أو انحطاطا. وعليه؛ فإن اختيار موضوع التجربة الألمانية كتجربة نهضوية حداثية تقدمية لها خلفياتها الموضوعية والفلسفية، ومحاولة الاستفادة منها في بلورة رؤية وكذا استراتيجية معينة للخروج من ردهات التخلف والانحطاط، يصبح أمرًا ضروريًّا يمكن أن يرفع إلى درجة الواجب الذي يصبح معه تناول هذه التجربة في حيثياتها المختلفة أمرا لا مفر منه. إلا أن هذا الأمر محفوف بمزالق منهجية ومعرفية وجب بسطها والتنبيه إليها، ولكن قبل ذلك نقرر ما يلي:

إن التقدم أو التأخر لا يمكن أن يكون إلا **هيكليًّا**، إذ يشمل كل القطاعات وبدرجات متفاوتة، ولا تسلم منه لا المؤسسات ولا الأفراد ولا الجماعات، بل ولا الفلسفات الموجهة للأفعال ولا الاستراتجيات المتبناة. وتناول التجربة الألمانية قد يساعد

على إثارة الانتباه لما تم إغفاله، أو تناسيه، أو لم يتم التفكير فيه، أو لم نحسن إنزاله. وعليه فإن استشراف النهضة العربية الإسلامية منوط بمدى استيعابنا لأربعة عناصر أساسية: الواقع من جهة، وتجربة الآخر المتقدم من جهة ثانية، وتطوير برامج تتوافق وسياق إنزالها من جهة ثالثة، وأخيرًا الدوام على المتابعة والتقييم والتعديل والتجديد من جهة رابعة.

إن سيرورة التقدم تخضع لسنن وجب الالتفات إليها واستحضارها واحترامها وإلا تجاوزتنا، فهي لا تحابى أحدًا، ولا تعترف بخصوصية أحد، ولا تفاضل بين الشعوب استنادًا إلى لغة أو فكر أو عقيدة، بل هي قوانين إما أن نكتشفها ونحترمها فترفعنا صعودًا في سلم النمو، أو نتثاقل في البحث عنها، أو لا نصونها فتسارع بنا هبوطًا إلى ردهات التخلف.

وعمومًا لا نهدف من خلال هذا المؤلف إلى الحديث عن أشكال التخلف وأسبابه في الوطن العربي الإسلامي، فهذا مما وقع عليه الإجماع وفي كل المجالات، بل إن غاية قصدنا هو قراءة التجربة النهضوية الألمانية من زوايا مختلفة علَّنا نظفر ببعض سنن العمران البشري على رأي ابن خلدون، وكذا استنتاج بعض القواعد التي ارتبطت بمختلف مجالات الحياة سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو التربوية بغية التنبيه إليها واستثمارها. ولكن قد يعترض معترض ويقول: إن تجارب الشعوب لا يمكن نقلها، والأجدر هو بذل الجهد من أجل تحليل واقع التخلف وتفكيكه وإعادة بنائه بمراعاة خصوصياته. هذا الاعتراض نزكيه

ولكن نضبطه ونوضح من خلاله حدود مؤلفنا وغاية سعيه، ونقول ما يلي:

- التجارب التنموية تتمتع بالخصوصية.
- التجارب التنموية مسكونة بأهداف أهلها وخادمة لها.
- التجارب التنموية مبنية على فلسفة أهلها.
- التجارب التنموية متعلقة أينما كانت تعلق بإمكانات أهلها الطبيعية والبشرية.
- التجارب التنموية مرتبطة بطبيعة أهلها ودوافعهم ومقاصدهم الكبرى وهممهم وقدرة تنافسيتهم.
- التجارب التنموية بنت وفية لظروف وواقع نشأتها.

كل هذا نعيه تمام الوعي،ونعتبر أن التدقيق فيه يحتاج منا إلى الرجوع إلى مبحث معرفي متخصص في هذه الإشكالية وهو مبحث التخلف ونظريات الحداثة والتبعية Modernisierungstheorien und Dependenztheorien.

وعلى العموم فإن مصطلح نظريات الحداثة له حمولة تختلف باختلاف الحقول المعرفية التي تناولته، إذ له في العلوم السياسة وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي وعلوم الاقتصاد والأنثربولوجيا والتاريخ، خصوصيات ترتبط بمجال تداوله. ولكن رغم ذلك يمكن القول بأن هذا المصطلح يطلق بالأساس على كل تحول ثقافي أو اجتماعي اتُّبع فيه النموذج الغربي بغية الخروج من دائرة التخلف، وكل انزياح عن هذا النموذج يسمى تخلفا.

فنظريات التحديث تعتبر أن المجتمعات الحداثية تتميز بما يلي[١]:

- العقلانية.
- التقدم الاقتصادي الاجتماعي والتخطيط للتطور.
- ارتفاع الإنتاجية.
- ارتفاع مستوى عيش المواطنين.
- تكافؤ الفرص الاجتماعية والاقتصادية أمام المواطنين.
- فعالية المؤسسات الوطنية وأشكال تدخلها.
- الوحدة الوطنية واستقلالية القرار.
- الديمقراطية والمشاركة.
- الانضباط الاجتماعي.

بالرجوع إلى Talcott Parsons فإن أساس تقدم المجتمعات الحداثية هو توفرها على أشكال تنظيمية بيروقراطية فعالة تخدم الأهداف الجماعية للمواطنين، كما تتوفرهذه المجتمعات على نظام مالي رصين، واقتصاد السوق، وكذا نظام قانوني لضبط أشكال التعاملات الفردية والمؤسساتية، وكل هذا مؤطَّر بنظام ديمقراطي يعتمد الانتخابات كآلية لتداول السلطة.

أما المجتمعات المتخلفة والتي من ضمنها المنطقة العربية فلها سمات أخرى أجملها Dieter Nohlen فيما يلي[٢]:

(١) Wagner, N; Kaiser; N und Beimdiek, M.: ?konomie der Entwicklungsl?nder. Eine Einführung. Stuttgart 1983. S. 27.

(٢) Dieter; Nohlen und Franz; Welt.: Handbuch der Dritten Welt.Berlin/Bonn 1992.S. 33.

- انخفاض مستوى الدخل الفردي.
- ارتفاع الاستهلاك وخصوصا المواد الأساسية.
- ضعف الادخار وانخفاض مستويات الاستثمار.
- ضعف الإنتاجية والاعتماد على الفلاحة.
- انعدام رؤية واستراتيجية واضحة في كل القطاعات.

وعمومًا فكل القطاعات تعاني من أشكال التخلف إن على مستوى البنية التحتية، أو الكفاءات البشرية، أو التدبير الإداري، أو حتى الفلسفة الموجهة لها، ومنها الصحة، التعليم، الغذاء، البيئة، السكن، المرأة، الطفولة، حقوق الإنسان، زد على ذلك الاضطهاد السياسي والمديونية الخارجية. إنها رزمة من التحديات التي تمتد إلى عمق كل قطاع وتحول دون تقدمه.

عمومًا هذه مظاهر التخلف، أما أسبابه فهناك نظريات تركز على الأسباب الداخلية Modernisierungstheorien، وأخرى تركز على الأسباب الخارجية Dependenztheorien. وليس من أهدافنا الخوض فيها، ولكن أردنا أن نوضح من خلال هذا المدخل المقتضب أننا عندما نتناول التجربة الألمانية فهدفنا هو الكشف عن الاجتهادات التي ميزت هذه التجربة في الاقتصاد والسياسة والتربية وأوصلتها إلى التلبس بخصائص الدول المتقدمة، وذلك بغية تلمس خيوط الحداثة عند أهلها لا بهدف النقل، بل بهدف الفهم من أجل الإبداع والابتكار. وباختصار ووضوح نود بداية أن نفهم التجربة الألمانية لنجيب عن أول سؤال يعترضنا في

سيرورة التقدم وهو: ماذا علينا أن نفهم ونفعل للصعود إلى مستوى أعلى؟

إن هدفنا هو أن نستجلي كيف اشتغل غيرنا بطريقة فعالة، وما هي الأدوات التي استثمرها في كل مرحلة؟ وأين حقق النجاح؟ وكيف؟ وأين تعثر؟ ولماذا؟

وسنتعرض لهذه الأسئلة بطريقة مباشرة تارة، وتارة أخرى بطريقة غير مباشرة وفي كل القطاعات التي تمكنا من بسط الكلام فيها.

ولقد قسمنا هذا العمل إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: تناولنا فيه النظام السياسي والسياسة الخارجية الألمانية.

الفصل الثاني: خصصناه للنظام التربوي.

الفصل الثالث: تناولنا فيه النظام الاقتصادي.

الفصل الرابع: عرجنا فيه على الأسس القيمية والفلسفية الموجهة للنظر والعمل في ألمانيا.

كما تناولنا فيه قضايا حرجة يفارق فيها العالم العربي الغرب المسيحي كقضية العلمانية، ودور الدين في التنمية ووضحنا من خلاله حدود هذا المبدأ بالنسبة للعالم العربي، وأخيرًا جمعنا خلاصات جامعة على شكل خصائص تميز ألمانيا عن غيرها واعتبرناها جماع ما يمكن أن يستفاد من هذه التجربة النهضوية. كما ذيلنا مؤلفنا هذا بملحق لائحة بالمصادر المعتمدة.